

الشيخ علي بن عمارة البرجي

صلافة في الحق، وتفان في خدمة العلم والدعوة

سمير سمراد
إمام خطيب. الجزائر

مولده وتعلّمه:

ولد الشيخ في بلدة «برج بن عزون» سنة (1895 م).
■ يقول الأستاذ سليمان الصيد: .:

«منذ صغره أتجه الوجهة الصحيحة؛ إذ اغترف من منهل العلم، وقد قرأ كتاب الله العظيم في «برج ابن عزون» على طلبة البرج وشيوخها الأجلّاء، وبعد حفظه القرآن الكريم، وأخذَه للمبادي العلميّة التي كوّنته على علماء بلده ونواحيها؛ تاقَت نفسه إلى التزوّد بالعلم؛ فانتقل في ظرفٍ صعبٍ لم يُبْتَنِه عن طلب العلم إلى تونس، والتحق بجامع الزيتونة وبقي عدّة سنوات في الدراسة»⁽²⁾.

تخرجه من جامعة الزيتونة (1925م):

تخرّج الشيخ عام (1925 م) من الجامعة الزيتونيّة، وكان من رفقاته فيها: الشيخ محمّد ابن خير الدّين الفرّفاري (من «فرّفار» - طولقة)، وقد فازاً معاً في العام نفسه في امتحان شهادة «التطويح» (العالميّة)، ورجعاً إلى الوطن عامليّن عامليّن؛ ليشاركاً في نهضته العلميّة الدّينيّة.

■ وقد كتبت «النّجاح»⁽³⁾. لصاحبها الشيخ عبد

الشيخ علي بن عمارة البرجي، نسبةً إلى «البرج»: قرية (من قرى الزّيبان) تبعد عن «طولقة» بنحو (4 كلم)، وعن «بسكرة» بنحو (40 كلم)، وتُعرف بـ: «برج - طولقة» و«برج ابن عزون»، وهي بلدية من بلديات دائرة «طولقة»، ولاية «بسكرة».

هو أحد علماء الوطن الجزائري، طارت شهرته وذاع صيته في أرجاء «بسكرة» في منتصف العشرينيّات.

وكان معدوداً في الطبقة العاملة العاملة، وفي جملة الأساتيد النّابغين، حتى لقب بـ «نحرير البرج»؛ فقد جاء على لسان أحد رؤساء زاوية الشيخ علي بن عمر (الزاوية العثمانيّة) بـ: «طولقة»: الشيخ عبد المجيد ابن إبراهيم، وهو يستحّ علماء الوطن على التّصديّ للإجابة على مشكلات المسائل الدّينيّة ومهمّاتها، قوله⁽¹⁾:

«... وحيثما كانت هاته المسائل من المهمّات الدّينيّة؛ اقترحْتُ على عامّة علمائنا: الجواب عن علّلها للحاجة إليها فسُنِّفَتْ أنظار... نحرير البرج علي بن عمارة...»
في جماعةٍ سَمَاهُم من مختلف جهات الوطن.

﴿﴾

(2) جريدة «النصر» [الأربعاء 09 شعبان 1407 هـ. 8 أفريل 1987 م، (ص7)]. سليمان الصيد: «من تاريخنا الثّقافي: علي بن عمارة البرجي».

(3) «النّجاح»: العدد (216)، (ص3)، 10 جويلية 1925 م.

(1) جريدة «النّجاح»، [العدد (299)، الجمعة 8 ذو القعدة 1344 هـ / 21 ماي 1926 م، (ص3)]: مقال: «الفائدة المطلوبة» (6).

على كلِّ بلاءٍ يلحقهم من جهل الجاهلين واستبداد الظالمين وكيد الخائنين، فإنهم جنود الحقِّ، وأشرفُ حالات الجندي أن يموتَ في خطِّ الدفاع، ولكمَّ «بِحَمْدِ الله» من ثاقبِ الفكرِ وصحيحِ العلمِ ونشاطِ الشبابِ ما يُوهلكهم للنهوضِ بكلِّ عظيمٍ».

انتصابه للعمل الإصلاحي في بلده:

لقد اضطلع الشيخ علي بن عمارة بالمسؤولية، وعرف خطر المهمة؛ فانصبَّ للعمل الإصلاحي، وشرع فيما هو واجبٌ على أمثاله؛ من نشر العلم والتَّعليم والدَّعوة إلى الحقِّ والتَّحذير من الباطل، واستصلاح ما فسد من حال هذه الأمة المغبونة، الجاهلة بدينها والمغرَّرة بها، وتحريرها ممَّن تسلَّطوا عليها من الدَّجاجة والطَّماعين!

■ يقول الشيخ محمد بن خير الدين - الذي انتصب للتدريس في بلده «فرفار» وما جاورها من قرى واحات الزيبان، بعد عودته من تونس سنة (1925 م) :-
«كنت أقوم خلال هذا النشاط التعليمي بالتنقل إلى قرى الزاب وما حولها من أجل التنسيق مع إخواني ببسكرة؛ أمثال الشيخ الطيب العقبي، وزميلي في الدراسة بالزيتونة الشيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمد العيد آل خليفة والأستاذ الأمين العمودي - رحمهم الله .، وكانوا يبادلونني الزيارة أفراداً وجماعات في المناسبات المختلفة الخاصة والعامة»⁽⁵⁾.

إلى جانب الشيخ ابن باديس والشيخ الطيب العقبي:

ولبيان مدى الالتحام والاتحاد بين المصلحين السلفيين؛ أنقل هنا مكاتبةً - على طولها - نُشرت في «صدى الصحراء» عن «الوفد العلمي القسنطيني، يوم (5) مذكرات الشيخ محمد خير الدين» (88/1).

الحفيظ بن الهاشمي (عثماني) - تهنئُ المذكورين وغيرهما من الجزائريين؛ فقالت:

«(العلماء الجدد) من الكلية الزيتونية:

فاز في امتحان الكلية الزيتونية هذه السنة العلماء الأجلاء المشايخ السادة:

...علي بن عمارة من البرج . طولقة... محمد

ابن خير الدين الفرغاري من فرفار . طولقة... فنهنيهم بالدرجة العلمية التي حصلوا عليها بفضل كدهم والمعيتهم كما نهني القطر الجزائري بهم».

■ وكتب الإمام ابن باديس صاحب: «المنتقد»⁽⁴⁾

كلمة تحمل أسمى المعاني، وتضجُ بغيره دينية عظيمة لا يحملها إلا صدرٌ مثل صدره، وهي صالحة لأن يُخاطب بها كلُّ مؤهل في العلم، ومَن هو معدودٌ في أهله، فتوجه عناية إخواننا إليها، وندعوهم إلى الإصغاء إليها، عسى أن تعيها قلوبهم، وتشتطُّ للأخذ بها همهم، فما أشبه الحال بالحال، وما أوجنا إلى أمثال أولئك الرجال!

«التهنئة الحقة: رجال العلم:

في كلِّ عام منذ سنوات يفوزُ بشهادة العالمية «التطويح» من جامع الزيتونة المعمور؛ جماعة من أبناء الجزائر، وقد فاز هذا العام هؤلاء السادة الفضلاء على الترتيب:

...محمد خير الدين/فرفار . طولقة.

...علي بن عمارة/البرج . طولقة...

فنهنيهم ونهني بهم الوطن، مُذكِّرين لهم بأن إحياء اللغة وقتل الضلالات ونشر المعارف هم وأمثالهم المسؤولون عنه، والمضطلعون للقيام به، فعليهم أن يجاهدوا في سبيله مع امتزاجهم بطبقات الأمة وأطلاعهم على جميع شؤونها العامة، وصبرهم

(4) «المنتقد»، العدد (3)، الخميس 24 ذي الحجة 1343 هـ / 16 جويلية 1925 م.

الأولياء، فتكلم في الموضوع بإسهاب، وبين للناس أنه لا ينكر الولاية من أصلها والكرامة والزيارة بشرطهما الشرعيين، وما كاد يتم درسه حتى رجع الحاضرون عن كل ما كانوا يسمعون عنه من الأراجيف والأباطيل، وقد حصل التفاهم والحمد لله... اهـ.

يبدو أن الشيخ ابن باديس كان يولي الاهتمام الكبير لدعوة الشيخ العقبي في «بسكرة» ولدعوة إخوانه وأنصاره في «الزيان»، وجاءت هذه الرحلة أو الزيارة دليلاً على ذلك، كما جاءت للتأكيد على المؤازرة والنصرة، وشد عضدهم بإخوانهم في حاضرة قسنطينة. كما قد تكون لأجل التخفيف من حدة الصراع بين الفريقين (السلفيين والطرفيين)، والتدخل لإيجاد سبيل للتفاهم، بإيجاد خطابٍ لئِن وهادئ؛ بعد تلكم الثورة الجامعة، والهجوم العنيف؛ وإحداث توازن دون الإيغال والإسراف في الهجوم! ويشهد لهذا أن ابن باديس كان قد أوقف في مجلته «الشهاب» الكتابات الهجومية، ممّا أغضب عليه الشيخ العقبي، الذي لم يرضه أن يكون - حسبهُ - لأهل الضلال هذا الامتياز!

والمقصود أن هذه الزيارة نَفَعَت الشيخ العقبي وإخوانه العلماء، وأعطت نجاحاً ودفعاً أكثر لدعوتهم⁽⁷⁾.

محاربته للطرفيين:

■ نشر الشيخ السعيد الزاهري في جريدته «البرق»⁽⁸⁾، مكتابةً ظريفةً عن: «وفد الشعراء يزور طولقة - فرفار - البرج»، الذي ضم: «الأمين العمودي، الطيب العقبي، محمّد العيد، السعيد الزاهري»، وهؤلاء أعمدة الإصلاح وزعماءه في «بسكرة»، وبعد زيارة طولقة ثم فرفار،

(7) الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، (ص 81 - 83) للأستاذ أحمد مريوش.

(8) العدد (8)، 23 شوال 1345 هـ / 25 أبريل 1927 م، (ص 1)، والعدد (9)، 30 شوال 1345 هـ / 2 ماي 1927 م، (ص 2)!

الخميس 11 فيفري [1926 م]، قَدِمَ وفدٌ علميٌّ من مدينة قسنطينة إلى حاضرة بسكرة... يتألف هذا الوفد من علامة القطر الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد ابن باديس والكاتب الكبير... الشهير الشيخ مبارك الميلي...»، وبهذه المناسبة. أيضاً. قدم من الزيان حاضرة الشيخ علي بن عمارة البرجي والشيخ محمّد ابن خير الدين الفرغاري والشيخ الصديق بن عريوة الزيتونيون...»، ذهب إلى المحطة لملاقاة ذلك الوفد الفخيم جمع من الأدباء والفضلاء وفي مقدمتهم الرجل الوحيد والمصلح الكبير والكاتب القدير والسياسي الشهير الأستاذ الطيب العقبي...⁽⁶⁾.

«ومن الغد ذهبوا إلى بلدة «سيدي عقبة» لأداء صلاة الجمعة...»،

«راجعين إلى «بسكرة».. يوم السبت...».

«ويوم الأحد سافر هذا الوفد الفخيم إلى طولقة»

باستدعاء من العلامتين الفاضلين الشيخ علي ابن عمارة والشيخ محمّد بن خير الدين الزيتونيين... توجه الوفد إلى بلدة «البرج» باستدعاء من العلامة الشيخ «علي بن عمارة»، فنزل بمحلّه ثم قصد جامع الشيخ ابن عزوز لتأدية صلاة العصر ومنه إلى جامع الجمعة وقد ألقى فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس درساً، فسّر فيه قوله تعالى: ﴿الْأَبْرَارُ أَزْوَاجٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ﴾^(١٦) إلى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١٧)، وقد أبدع وأجاد فيه، وبين حقيقة الولي وما يعتقد فيه، ثم اقترح الشيخ علي بن عمارة على الشيخ الطيب بأن يُقَيَّ على الحاضرين كلمات ليبريئ نفسه ممّا أشيع عنه من نكران (الولاية) و(الكرامة) و(الزيارة) لبقبور

(6) «صدى الصحراء»، العدد (11)، (ص 2)، 16 شعبان 1344 هـ / 1 مارس 1926 م.

يقول الزاهري:

«...مشينا إلى «البرج»؛ فنزلنا في ضيافة الأستاذ الشيخ علي بن عمارة؛ فظلنا عنده عامّة يومنا، وقد قرأ الأستاذ العقبي بعد صلاة العصر درسًا هائلًا حضره أهل البلاد كافة؛ ولقد فتحنا بذلك فتحًا مبيّنًا، فأصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وإن كانوا قبل ذلك من المسلمين»، ثم رجعوا إلى فرفار.

■ يقول الزاهري:

«ثم ركبنا عند الزوال قطار بسكرة وشايعنا إلى محطة «ليشانة» حضرات الأساتذة السادة: محمد خير الدين، علي بن عمارة، بلقاسم الميموني، وكان الشيخ السعدوني⁽⁹⁾ ركب وتبوأ مقعده قبلنا ولم أكن رأيته قبل اليوم... وقد حيّاه الجماعة قبلي، وسبقوه بالسّلام عليه، وما كدنا نتبوأ مقاعدنا حتّى أخرج سيدي علي بن عمارة العدد السادس من جريدة «البرق»، وكلفني أن أقرأه أنا بالجهر على القوم وهم يسمعون؛ فقرأت أكثره وقرأ هو ما بقي كذلك، ثم ودّعونا في محطة «ليشانة»، ولم يتكلّم الشيخ السعدوني في أثناء هذه المدّة بكلمة مع أننا جميعًا نكلّمه ونقبل عليه بكلّ أدب...».

■ ونشر صاحب «البرق»⁽¹⁰⁾. أيضًا -مكاتبة لـ«سائح» تحت عنوان: «سياحة»، وصدرت هذه المكاتبة يُشعر بأنّها لصاحب «البرق» نفسه؛ الشيخ السعيد الزاهري، يقول: «ثم رحلنا منها [أي: طولقة] إلى بلدة «البرج» بلدة ذلك الأستاذ الحكيم شديد اللهجة على الطرقيين الخرافيين وأذناهم المتملّقين؛ الشيخ علي بن عمارة، فقابلني مع جمع من تلامذته وهو يبتسم قائلاً: ليعيش حزب الله المؤمنون الصّالحون، ولنسقط ليعيش حزب

(9) وهو من الشيوخ المعادين لدعوة الإصلاح، وله كتابات معارضة في صحيفة «النجاح»، تويج ببلدته: «أورلال»، سنة (1931 م).
(10) العدد (444)، 19 محرم 1346 هـ/ 18 جويلية 1927 م/ (ص3).

الله المؤمنون ولنسقط، تبين لي أنّي قابلت أسدًا من أسد الله، فقلت له: سبحان الله! يا ويل الطرقيين ويا ويح أذناهم منك! ثم التفت إلى جماعة تلامذته المصلحين فوجدتهم كالأشبال حولنا يتقدون غيرة على الدين والوطن والإنسانية، ويمقتون كلّ طريقيّ كيفما كانت صبغته، وبأيّ شكل تشكّل، ومن أيّ نوع خرج، وأنشدني بعض تلامذة الأستاذ المذكور قصيدة يهجو بها فرّوج (أورلال)⁽¹¹⁾ الطريقي ومطلعها: «بن بيقو» و«بن طيوس»

سراب»، وسينشرها في «البرق» الخاطف لأهل الزّين والضلال الذين يقولون: الرجوع إلى الكتاب والسنة ضلالة أبدية وشقاوة سرمدية اليوم وقبل اليوم...!!!
وقد صفا جوبلدهم «البرج» من خرافات الطرقيين بسبب ما يلقيه فيهم أستاذهم الشيخ علي من الدروس المتواليّة والأفكار الطيبة السديدة؛ فبتنا ليلة عندهم، وما أجملها!

ليلة نتحدث فيها على أحسن الطرق التي توصل لرقّي أمّتنا وما فيه صلاحها؛ ومن جملة ما ذكرنا تعليم الناشئة الجديدة بطرق صالحة مفيدة.

وبهذه المناسبة ذكر لي أنّه عزم على إنشاء مكتب للأولاد الصغار لتعليم القرآن وشيء من المبادئ العلمية؛ لأنّ المكتب القديم صار غير صالح لما فيه من القاذورات والرطوبات... اهـ.

قصة (مطبعة الإصلاح) ودوره فيها:

وكما قام الإمام ابن باديس في «قسنطينة» بتأسيس جريدته: «المنتقد» ثم «الشهاب»، لتكون لسان الشبان الناهضين، ومنبرًا لأقلام المصلحين السلفيين، تجول

(11) هو الشيخ السعدوني بن المدني، المتقدم الذكر؛ وهو صاحب مقالة: «الرجوع إلى الكتاب والسنة ضلالة»، الخ، نُشر ذلك في «صحيفة النجاح»!

ببعض الأعمال التجارية التي خُصصَ عائدُها للإنفاق في سبيل الحركة الإصلاحية، وقد جعلناها وقفاً على خدمة الحركة الدينية الإصلاحية؛ راجين بذلك ثواب الله»، وانظر صورة العقد [المخطوطاً] بأسماء المشاركين، في «مذكرات الشيخ خير الدين» (1/93 - 94)؛ وبدايته:

«نحن الممضين أسفل هذا؛ نشهد على أنفسنا أننا أقرضنا الشيخ الطيب العقبي عدد (32500) اثنين وثلاثين ألفاً وخمسمائة فرنكاً، وهذا العدد دفعه أصحاب الأسماء أسفله:

السيد خير الدين محمد... السيد علي ابن عمارة... السيد محمد العيد حمّ علي... وهذا القرض على سبيل الإحسان فقط، أي بغير فائدة، ولأجل غير مسمى، والغرض منه إنشاء مطبعة بسكرة تحت إدارة الشيخ الطيب العقبي، وإنَّ الشيخ الطيب العقبي لا يلزم بأداء العدد المذكور أعلاه إلا إذا سلم المطبعة إلى غيره ... 1 جوان سنة 1929....» اهـ.

لقد سَخَّرَ المصلحون أموالهم لأجل الدعوة، ولضمان استمرارها وبقاء قوتها، وساندوا الزعيم الكبير ووقفوا إلى جانبه في محنته ومحتهم بتعثر «الإصلاح»، وأبَّت عليهم همَّهم وأنفَت غيرتهم الدينية أن تبقى مكتوفة الأيدي تتفرَّج على ما أصاب «الإصلاح»!

فأين السلفيون اليوم! من مثل هذه المؤازرة؟! ولا يزال أهل العلم يشكون من فقد النِّصير، وعدم الظهير!

ويناسبُ هنا نقلُ ما حدَّث به الجمال القاسمي الدمشقي (سنة 1329 هـ) عن الطاهر الجزائري؛ أنه كان يقول لهم:

«أما يكفي فلاناً أن يُنفقَ من زمانه وقوته لتقوية الحقِّ ومقاومة الجمود حتى يحمل همَّ النفقة لإظهاره؟!»

وتصوّل تعرّضُ «الإسلام الصحيح»، وتشنُّ الهجوم على الباطل والمبطلين، قامت الجماعة المصلحة في «بسكرة» بتأسيس صحافة حرّة، فكانت «صدى الصحراء» (سنة 1925 م) لصاحبها الشيخ أحمد بن العابد العقبي، وقد شاركه في التأسيس والتحرير، الزعيم: الطيب العقبي، والشيخ علي بن عمارة، وغيرهما من العلماء والكتاب الأدباء⁽¹²⁾.

ثمَّ أسَّسَ الطيب العقبي جريدته «الإصلاح»؛ وقد شاركه في تأسيسها الشيخ علي بن عمارة وغيره من المصلحين⁽¹³⁾.

صدر العدد الأول منها في 8 سبتمبر 1927 م، طبعه في تونس، بعد أن عجز عن طبعه في مطبعة جزائرية!

وقفت الإدارة الفرنسية في وجه «الإصلاح»، ومنعتّها من الصدور وعطلت طبعها في تونس!

وبعد عناء كبير، تمكّن العقبي من إصدار العدد الثاني من جريدته بتاريخ 5 سبتمبر 1929 م، أي بعد سنتين كاملتين من صدور العدد الأول⁽¹⁴⁾، طُبعت «الإصلاح» هذه المرّة...! ليس في قسنطينة ولا في الجزائر ولا في تونس! وإنما طُبعت في بسكرة.

■ يحدثنا الشيخ محمد بن خير الدين (1/91) عن «مطبعة الإصلاح»، وقد سمّيت: «المطبعة العلمية»، واشتراك جماعة من المصلحين (منهم: الشيخ علي ابن عمارة) لشرائها، وذلك بهدف إصدار جريدة «الإصلاح» التي أدارها الشيخ الطيب العقبي، والقيام

(12) جريدة «النصر» للأربعاء 09 شعبان 1407 هـ - 8 أبريل 1987 م، (ص7)، سليمان الصيد: «من تاريخنا الثقافي: علي بن عمارة البرجي».

(13) المرجع نفسه.

(14) «الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية»، (ص101) للأستاذ أحمد مريوش.

والوطن؛ فإنه كلما وقع عجز مادي لجريدة «صدي الصحراء»، والشيء نفسه لجريدة «الإصلاح»، «بسبب محاصرة الاستعمار لهما وترتبت مصاريف كبيرة على المطبعة وأراد البعض التَّنصُّل من ذلك (١)، الشيخ علي ابن عمارة المؤمن المخلص استطاع أن يضحِّي برزقه في سبيل المبدأ، إذ باع جنان النُّخيل الذي ورثه من أبيه وسدَّد المصاريف بشجاعة وإخلاص» (١٧).

من مواقفه الإصلاحية في كتاباته:

أبرز من خلال هذا الفصل مواقف الشيخ علي ابن عمارة الإصلاحية، وجولاته في جدال المخالفين وتوير النَّائِهين، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، ممَّا بيَّن أنه كان من أعمدة الإصلاح في «بسكرة» الزيبان وما حوَّليها، كما يتضح من خلال ما أسوقه أسلوب الشيخ في الكتابة:

* قال في مقالته: «قطع بدعة شنيعة بقري الزَّاب»، نشرها له ابن باديس في «الشَّهاب» [العدد (97)، (ص 9 - 10): 17 ذي القعدة 1345 هـ/ 20 ماي 1927 م]، وقال تحتها: «للعلمة المرشد صاحب الإيماء»:

«اعتاد الكثير من نساء الزَّاب «طولقة» وما حولها من القرى السَّفر للشيخ عبد الرَّحمن الأخضرري وشدَّ الرِّحال لقبه على رأس كلِّ سنة مع بعض الرِّجال الذين لا همَّة لهم ولا مروءة، فتتهيأ النساء لذلك اليوم المشهود ويتزيَّن بأفخر اللباس ويتطيَّبن بأذكى الروائح!!

يوم عظيم حرُّه شديد وقعره بعيد، تختمر فيه عقول الزَّائرين والزَّائرات والرَّاقصين والرَّاقصات!!

(17) جريدة «النصر» الأربعة 09 شعبان 1407 هـ. 8 أفريل 1987 م، (ص 7)، الأستاذ سليمان الصيد: «من تاريخنا التقايف: الشيخ علي ابن عمارة البرجي».

فأين الإنصاف؟!

وبالجملة فالحالة عندنا عجيبة جداً، والعتبُ كُلُّه على عدم مؤازرة مُثري السَّلَفِيِّين لأهل مَشْرِبِهِمْ، والمستعان بالله» (15).

■ وقد كتب الشيخ علي بن عمارة (16)، مقالاً بعنوان: «جريدة الإصلاح»، تكلم فيه عن محنة «الإصلاح»، ثم انتصاره، قال:

«ولا تحسب أن عملهم هذا أو وقوفهم هذا الموقف الإصلاحى الخطير، قد تُركوا فيه وشأنهم حتى ينتبه الغافل ويستيقظ النَّائم، فناوشتهم الأقلام الفاجرة من كلِّ ناحية، وسلقتهم الألسن بكلِّ نقيصة، ففسَّقوهم وكفَّروهم ونسبوهم للإلحاد والزُّنْدقة... فَعَادَنَا القريب والبعيد حتى أسرتنا وأصدقائنا، ولو لم نصبر على ذلك السَّيل الجارف، وتلقاه بالتدُّرُع والثبات، فنشتدَّ ساعة الشدَّة، ونلین وقت اللین؛ لما كانت عاقبتنا الفوز والنَّجاح، ولما تجلَّت الحقائق وسطعت واضحة الجبين...».

وختم مقاله بقوله: «ونشكر كلَّ من آزرنا على إنشاء المطبعة العلمية ببسكرة، فإنهم أحسنوا وأحسنوا وأحسنوا، جزاهم الله بأحسن الجزاء... فلقد أحيوا «الإصلاح»، وبإحيائه فكأنهم أحيوا النَّاس جميعاً، ولولاهم لبقى أبد الدهر مقبوراً مهضوم الجانب... اهـ.

لم تقف مَكْرُمَاتُ الشيخ «علي بن عمارة» عند الاشتراك في تأسيس «المطبعة العلمية»، فقد روى الأستاذ الصَّيد مكرمةً أخرى له، تُنبئ: «عن إخلاص الشيخ علي ابن عمارة وتقانيه في حبِّ الخير لفائدة اللغة والدِّين

(15) «الرسائل المتبادلة بين الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ محمود شكري الأتوسي» (ص 173) لمحمد بن ناصر العجمي.

(16) «الإصلاح» [العدد (07)، 7 نوفمبر 1929 م] / بواسطة مقال الأستاذ سليمان الصيد: «من تاريخنا التقايف: الشيخ علي بن عمارة البرجي».

القلم أحد اللسانين، احفظ لسانك تنج من العثرات،
كما كانت بينه وبين ابن عمارة مناظرات. اهـ.
كلاً! إن «عاشور» الذي لقبَ نفسه: «كليب الهامل»،
قال ما قال في مدح «ابن عبد الرحمن»، وقال عنه: «أنا
لا أقول إنه عرش أو فرش كرسي أو سدرة المنتهى، بل
أقول هو الله! هو الله!»!! إلى غيرها من كلماته الكفرية
التي تتضح بعقيدة الحلول والاتحاد. عياداً بالله!.. هذا؛
وعاشور يقرُّ فضل عصاة الأشراف بمثل قوله:

يأتون يوم الحشر مغفوراً لهم

من غير كسب بل على الشرف الأغر!

فحاشا العقبي وإخوانه أن ينعوا على أحد حب آل

البيت!

فالحافظي يريد الكف عن هؤلاء وما يعتقدونه من

الكفر! وإقرارهم عليه بالسكوت!!

وقد وقف إلى جنب العقبي جلة من العلماء

والكتّاب منهم: الشيخ أبو يعلى الزواوي⁽¹⁸⁾. وكانت

تربطه صداقة بالحافظي من أيام إقامتهما بمصر..

وقد حكّم بين الرجلين بعدل وإنصاف؛ قال:

«فبأي وجه يردُّ على الشيخ العقبي؛ أبي ذر، ويدافع

عن أصحاب الحلاج الغلاة الذين أهانوا العلم وابتذلوا

الشعر وتلقبوا بالكلاب المصفرة وأباحوا للشرفاء أن

يعملوا ما يشاءون...» اهـ.

معرفته الفضل لأهله:

كان «الشيخ علي بن عمارة»: ممن تصدّى لتهجّم

الحافظي على العقبي، فقال في مقالته: «مهلاً يا

عمي الحافظي»⁽³⁾⁽¹⁹⁾ مقررّاً أفضال إخوانه العلماء

⁽¹⁸⁾ في مقالته: «محاربة البدع/إلى طلبة العلم عموماً والكتاب منهم

خصوصاً،/جريدة «صدى الصحراء»، العدد (12)، (ص 2-3).

⁽¹⁹⁾ «الشهاب»، العدد (161)، (ص 9-11)، 6 ربيع الأول 1347 هـ/

23 أوت 1928 م.

يوم يرفع فيه التكليف وتسقط فيه أوراق الخريف،
ضرب طار وشطحٌ وبندير ومزمار.. ولا أزيدك أيها
القارئ! بيانا لهذه المناظر المخجلة المميّنة للشعور
المخدّرة للأعصاب، وغيرها من البدع التي يمجّها السمع
وتأبأها الطبيعة ورضي بها أهل الأغراض، وألصقوها
بالشريعة وصيروها جزءاً منها لا يتجزأ في نظرهم حتّى
إنك لو أردت البحث معهم فيها أو مع أذناهم لحكموا
بفسقك وكفرك وزندقك، قبح الله سعيهم وأغراضهم؛
لأنّي اليوم لست بصدّد تعداد البدع، ولأنّ الأرض غير
الأرض، والهواء غير الهواء.

كل هذا والعلماء ساكتون، صامتون، جامدون،

ملجمون بلجام الدينار والدرهم، ويملؤون بطونهم من

أيدي الذين ينتسبون لهذا الدين بالعمائم وفخفخة

اللباس وشقشقة الكلام الفارغة، طهر الله منهم ساحة

هذا الدين القويم، دين الفطرة التي فطر الله الناس

عليها وتباً لفعالهم...».

* وقد ردّ الشيخ «علي بن عمارة» على الشيخ

المولود الحافظي الأزهري في مقالة طويلة نشرت في

«الشهاب» على أجزاء.

ذلك أنّ الحافظي رمى العقبي بالتكفير، ونعى

عليه أسلوبه الدعوي، في مقالة له نشرها في «النجاح»

[العدد (270)، (ص 2-3)].

ومن الأخطاء الفاحشة أن يسطر صاحب كتاب:

«الشيخ المولود الحافظي، حياته وآثاره» (ص 86)،

كلاماً ينبئ عن قصور بالغ في فهم وتصوّر الخلاف بين

الحافظي والعقبي، إذ قال عن المناظرة بينهما:

«موضوع المناظرة يدور حول القصيدة العاشورية

التي مدح فيها الشاعر الشيخ عاشور آل البيت أ

وأثنى عليهم ممّا جعل الشيخ العقبي يقول بكفر الشاعر

وينعى عليه حب آل البيت، فكتب الحافظي مقالاً بعنوان:

العاملين على الأمة الجزائرية:

«من أولي العزم في الجزائر الأستاذ الطيب العقبي وقد وصفه أبو يعلى بأنه أبو ذر وهو صادق في ذلك، العقبي رجل متفان في حب الخير والإصلاح.. مذهبه الصراحة لا ينافق ولا يدهن، وهو سلفي صميم، يبغض الشر وأهله ويمقت الظلم والاستبداد كيفما كان نوعه، ومن أي مصدر خرج، صرخ صرخة على الجزائر دوت لها الأرجاء غير هيأب ولا وجل وأعانه على ذلك قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أعزاء النفوس لا تأخذهم في الله لومة لائم.»

إذا بلغ الرضيع لهم فطاما

تخر له الجبابرة ساجدينا

أولئك هم رجال الإصلاح (20)...

من آثاره وآثار إخوانه المصلحين في نفوس الأمة الجزائرية:

■ ثم يقول عن أثرهم الحسن في الناس:

«وقد أثر سعيهم في نفوس أبناء الجزائر تأثيراً حسناً فانتهبوا من نومتهم الثقيلة الطويلة، وصاروا لا يؤمنون ولا يصدقون إلا بما يوافق ما صرح به القرآن أو نطقت به السنة ولا ينطق القرآن والسنة إلا بما يصلح شأن الدين والدنيا، وصاروا يبغضون كل طريق إلا الطريق التي سار عليها محمد وأصحابه، وعرفوا أن سبب انحطاطهم هو انحرافهم عنها، وتبهبؤوا للغشاة التي جعلها الدجالون على الأعمى من أن صوابه خطأ وخطأه كفر؛ ليصدوا بذلك المؤمنين عن فهم كلام ربهم حتى يشغلوا بخمرات أشياخهم، فيصبحوا بذلك غنم الشيطان وغنم الأشياخ وحبساً لهما، وما غنمهما إلا الخرافيون...» اهـ.

(20) ومنهم لا محالة. المترجم: الشيخ «علي بن عمارة البرجي» نفسه.

* وقد تعرض «الشيخ علي بن عمارة» لبعض كفريات «عاشور»، حينما كتب في «تفنيد إشاعة خاصة وإرشاد عام لبني الإسلام» (21): «حول شائعة عدم وجوب الزكاة» على لسان أحد شيوخ طولقة، وأفاض في بيان «مكان هذا الركن من أركان الدين»! ومما قاله:

«...حكم فيه [تعالى] بنفسه وبين مصرفه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ [البقرة: 60] الآية وهل كفانا هذا الحكم من الباري. جل وعلا. وهل أذعننا إليه؟ كلاً. بل ادعى قوم أن الزكاة مختصة بهم ولا تجوز لغيرهم...»

لو عدت لك - يا أخي - ما نرى ونسمع من البدع والأحكام المخترعة لكفرتني القوم.. رحماك يا رب..!

ولنقص عليك شيئاً من المخترعات:

حل بقرى الزاب رجل يدعى بعاشور أو كليب الهامل، فسأله بعض بأكك ادعت أن ابن عبد الرحمن هو اللوح والكرسي؟! فأجابته بأن اللوح مخلوق والكرسي مخلوق، بل ابن عبد الرحمن هو الله، هو الله، هو الله، كثرها ثلاثاً في ملا من الناس وأنا أسمع!! تأملوا إخواني! وسنعود للرحلة العاشورية إن شاء الله...».

دعوته للتفاهم ونبذ الخلاف:

■ ثم يوجه الشيخ دعوة خالصة إلى الخاصة لأجل التفاهم، ونبذ الخلاف، فيقول:

«إذا؛ فلنوجه نداءنا إلى العلماء والأدباء والكتاب... وأقول:

هلموا تعالوا نلبي الدعوة الدينية، ونعقد الخناصر

(21) «الشهاب»، العدد (13)، (ص13-15)، 21 رجب 1344 هـ/ 4 فيفري 1926 م.

والمصلحون، وقد كتبت عنه [النجاح] في العدد (1277)، الأحد 29 شوال 1350هـ/ 6 مارس 1932م/ (ص3)، وألقى فيه إمام الجامع خطاباً حث فيه الحاضرين على طلب العلم وشكر الأستاذ، وممّا جاء فيه:

«...وفي الختام أقدم خالص تشكراتنا القلبية لحضرة أستاذنا الشيخ علي بن عمارة؛ كم له مزية على الأمة المحمدية، وكم قلوب أزال صداها، وكم مشكلة حلّ خبيها وأجلاها!»

فهذا تفسير الكتاب المجيد الذي سارت بفضائله الرُكبان؛ قد أبدع فيه بفصاحته يفوق سبحان، ولا غرابة أن يفتخر به البرج وما حوله من القرى والمداشر. وأنتم أيها السادات! أهالي البرج؛ فقد حزنتم فضلاً كبيراً على غيركم بمجاورة هذا الرجل العظيم الذي لا زال يسعى في مصالحكم، ما دتمت في طاعته، أحياناً الله وإياكم حياة العز والهناء والسّلام» اهـ.

مصاب المصلحين بحادثة وفاته الأليمة:

■ كتبت «النجاح» [العدد (1509) الأحد 15 شعبان 1352هـ/ 3 ديسمبر 1933م/ (ص2)]، تحت عنوان: «إنا لله وإنا إليه راجعون، تعددت الأسباب والموت واحد»:

«نعت لنا أخبار «برج طولقة» وفاة العالم الألمي الشيخ علي بن عمارة المدرّس بالبرج، وقد كانت وفاته مدهشة ومؤثرة للغاية؛ لما كان عليه المرحوم من الكمال (!) وطهارة الضمير وحسن الأخلاق.

كانت وفاته فجائية ومؤثرة! وسببها خلافاً حدث بينه وبين بعض الأوباش من صفار سائقي السيّارات في شأن حمل بعض السلع من «البرج» إلى «بسكرة»؛ فجاهره صاحب السيّارة بعدم

ونبات القلوب على الرجوع إلى الحقيقة حيث كانت، وعلى التنازل لبعضنا في فهمها، وأن لا تأخذنا العزة النفسانية والخرافات الشيطانية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [المائدة: 10].

وإذا تنازعنا في شيء فهذا كتاب الله تعالى وسنة نبيه آ بين أدينا، نردّه إليهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِن نَنزَعْنَهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، وبعد فهم هاته الآية لا تقبل حجّة من يدلي بها من كلام والده أو جدّه ما لم توافق القواعد الشرعية، ويد الله مع الجماعة...».

الشيخ يوضح سبب الخلاف ومنشأ الفتنة:

■ ثمّ بيّن الشيخ بصراحة ما هي أسباب الخلاف، ومن هم موقدو الفتنة، فيقول:

«وأما نحن اليوم؛ فقد اشتغل الكثير من الأباطيل والأكاذيب والعُجَب والكِبَر والزور والبهتان والتقليد الأعمى، ولا ننسى حبّ استرقاق العباد بالرّئاسة الموهومة، إن لم نقل هي الطّامة الكبرى والقاضية على مجد الإسلام، فباؤوا بخسران مبین، «وكل يدعي وصلاً بليلى»، ولا تلمني - أيها القارئ - إن قلت: باؤوا بعمى البصائر والأبصار، ورجعوا القهقري إلى السُّقوط والدّمار...» اهـ.

ختم دروس التفسير:

كانت للشيخ خطبٌ ودروسٌ متواصلة يُلقها في «جامع الشيخ محمد بن عزّوز»، ومنها درس التفسير، الذي دام سنوات عدّة، إلى أن كان يوم الختم، والاحتفال العظيم الذي أقيم لمناسبته في 28 رمضان 1350هـ. وقد حضره جُلُّ أعيان البلد، وفي مقدمتهم العلماء

كم تنزل بأفرادها الصُّرَبات القاسية من يد أبناء
جلدتها الجاهلين المخدوعين ومن يد غيرهم!!!

لقد كان الأستاذ المرحوم الشيخ علي بن عمارة من
حملة العلم الصحيح والتفكير الناضج والغيرة المتقدمة.
رحل إلى تونس في طلب العلم؛ فمكث فيها ما شاء
الله.

ولما حصل على شهادة العالمية من جامع الزيتونة
المعمور؛ رجع إلى وطنه وكله أمل، وكل حركاته نشاط
وعمل، حتى إذا بدأت الحركة الإصلاحية في شكلها
الحاضر؛ بدأ معها بعلمه وفكره وقلمه وماله.

فكانت له مواقف شريفة تشهد له بالوطنية
الصادقة والإخلاص المتناهي.

وها هو يُقضى شهيداً [إن شاء الله تعالى] في وقت
كانت الحاجة إلى صراحته وصلابته في الحق شديدة.
فجزاءً أيها الكتلة المصلحة الكريمة! في هذا
المصاب الجسيم.

وإلى والديه الكريمين وأولاده البررة نتقدم بتعزيتنا
الحارة، ورحمة الله لتلك الرُّوح الطاهرة المجاهدة.

■ وقد نقل الأستاذ الصَّيد سماعاً: «أنَّ الشيخ عبد
الحميد بن باديس لما سمع بمقتل الشيخ علي بن عمارة
تألم كثيراً وحزن حزناً شديداً، وكتب عنه مقالاً . قال
فيه:

«مات الشُّجاع ونحن في حاجة إلى الشُّجعان
أمثاله، مات الكريم ونحن في حاجة إلى الكرام»
أمثاله، مات الصَّريح ونحن في حاجة إلى الصَّراحة
والصدق... الخ» (24).

(24) ذكر الأستاذ أنه بحث عن كلام ابن باديس هذا في «الشهاب»، فلم
يجده، وحوَّز أن يكون كتبه في «الصراط»⁶
قلت: أمّا مقال «الصراط»، فقد نقلته قريباً، وعندي شكُّ أوهماً
كتبه محرر «الصراط»: الشيخ السَّعيد الزَّاهري، وبشارته في ذلك
الطَّيب العقبي، أو هو لرئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:
الشيخ ابن باديس، إذ «الصراط»، جريدة الجمعية ولسان حالها؟

قبول الحمل مدعيًا بأنه لو لم تكن الضرورة لما جاء
إليه (22).

فكانت عاقبة الأمر أن حمل صاحب السيارة على
المرحوم بمدية فاستشهد [إن شاء الله تعالى] (23).

حزن لهذا الخبر جميع أهل الناحية ومن يعرف
الفقيد وما عليه من المكانة العلمية والأخلاقية؛ فقد كَرَعَ
من مناهل العرفان بالمعهد الزيتوني، وأحرز على شهادة
«التطوع»، ورجع يبيث العلم بواسطة دروس لا تتقطع،
وقد امتاز المرحوم بصفاء الضمير، وكرم السجايا،
والانقطاع للعلم ونشره.

فحنن إزاء هذه الرزية العلمية؛ نقدّم تعازينا
الحارة لرجال العلم وأقاربه وذويهِ، راجين لهم الصبر
والسلوان على القضاء والقدر الذي لا مردَّ له.
فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

■ وكتبت «الصراط» [العدد (12) الاثني 16
شعبان 1352 هـ/ 4 ديسمبر 1933 م/ (ص5)]
تحت عنوان: «رزة فادح وخطب أليم»:

«فجعت الكتلة الإصلاحية بانهبان ركن من أركانها
بوفاة العلامة المصلح الشيخ علي بن عمارة البرجي،
الذي وافاه الأجل المحتوم يوم السبت الفائت في بلده
«برج طولقة» على يد شقيّ دفع به الجهل على أن يستلَّ
خنجره ويغمده في بطن الأستاذ لشجار بسيط على حمل
بضاعة، من «البرج» إلى «بسكرة» (!) وهكذا الجهل
يُعمي صاحبه ويرمي به في أسفل دركات الشقاوة من
غير تدبُّر في عاقبة ما يصدر منه، ومن أين للجاهل أن
يتدبّر عواقب الأمور؟!.. ويا لله لهذه الطائفة المصلحة

(22) قال الأستاذ الصَّيد بشأن هذا الشُّجار: «والشيخ \$ الذي تربى
على الحزم في الأمور وصاحب جدِّ في أعماله لا يداري عندما يرى
الأمور معوجة وغير مستقيمة...» اهـ.

(23) قال الأستاذ الصَّيد بشأن هذه الحادثة: «فخرَّ الشيخ على الأرض
شهيداً [إن شاء الله] بالقرب من مسجد الرحبة في برج بن عزوز...» اهـ.